صورة الأب في التراث
والشعر المعاصر فاروق شوشة أنموذجا

أ.د/ عبد السلام الشاذلي
جامعة الزقازيق – مصر –

الملخص:

تعرض هذه الدراسة لصورة الأب في الشعر العربي في العصور القديمة؛ التي سادت فيها الروابط القبلية والعشائرية في أدب ما قبل الإسلام؛ وعندما انصهرت الحضارة العربية مع غيرها من الحضارات الإنسانية الأخرى في العصر العباسي خاصة؛ أخذت صورة الأب تظهر في كينونتها الفردية علي نحو ما نرى في شعر ثلاثة من كبار شعراء هذا العصر (أبي تمام، ابن الرومي، المتنبي.)

ومع شعر حركة البعث والإحياء في القرنين: التاسع عشر والعشرين، بدأت الروابط الأسرية تفرض قوتها، فكثر الحديث عن الأبناء والآباء؛كما نري في بعض شعر احمد سوقي؛ وغيره من أقرانه في كل من العراق والشام.

ومع ظهور الحركة الرومانسية؛ أخذت صورة الأب ملامحها الوجدانية الحميمة؛كما نجد في بعض قصائد أبي القاسم الشابي خاصة

ولقد شق رائد الشعر الجديد: بدر شاكر السياب: معالجة صورة الأب: في أبعادها الفنية: الدرامية والسردية في بعض من قصائده المتميزة

Summary:

This study presents the image of the father in Arab poetry in ancient times, in which tribal and clan bonds prevailed in pre-Islamic literature; Manri in the poetry of three of the greatest poets of this era (Abi Tammam, Ibn Al-Roumi, Al-Mutanabi.

With the poetry of the Ba'ath and the revivalist movement, in the nineteenth and twentieth centuries, family ties began to impose their strength, and there was a lot of talk about sons and fathers; as we see in some of the poetry of Ahmed Suqi and other peers in both Iraq and the Levant.

With the emergence of the Ramanese movement, the image of the father took its intimate sentimental features, as we find in some of the poems of Abu al-Qasim al-Shabi in particular.

And the pioneer of the new poetry: Badr Shaker Al-Sayyab: Treating the image of the father: in her artistic dimensions: dramatic and narrative; in some of the poems and the distinguished

1- صورة الأدب في الشّعر العربيّ القديم:

1) تظل صورة الأب في التراث الشعري العربي صورة ضبابية خافتة، ويعود ذلك إلى الطبيعة القبلية التي حكمت الحياة الاجتماعية، على مدار عصور الأدب العربي القديم فيما بين الجاهلية وحتى عصر بني أمية،

ولم يتضمن ديوان الشعر العربي كله شعرًا في مراثي الآباء، بقدر ما تضمن بعض قصائد رثاء للأخ كما نرى في رثاء الخنساء لأخيها، أو رثاء مالك بن الريب لأخيه، أو رثاء المهلهل بن ربيعة لأخيه كليب، كما تظل صورة الثأر للأب المقتول، كما نجد في سيرة جد شعراء العرب: امرئ القيس، أو البحث عن حقيقة الأب المفقود في سيرة عنترة أمراً مثيراً للتساؤل حول علاقة الآباء بالأبناء في تاريخ أدبنا العربي القديم.

2) وفي العصر العباسي (الأول والثاني) الذي اندمجت فيه أمم وشعوب شتى في بوتقة حضارية شاسعة الأطراف، ضمت إلى جانب العرق العربي عروقاً بشرية أخرى كالفرس والترك وغيرهما من الأجناس البشرية ، في هذا العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية، تحللت – إلى حد ما– الروابط القبلية الضيقة، لتحل

محلها روابط إنسانية أعمق، أصبح الولاء فيها قائماً على الصلات الأسرية (علاقة الأب – الابن) أو على العلاقات الثقافية التي استبدل فيها الشعر والأدب عامة بالأب الحقيقي النسب. وذلك على نحو ما يعبر أبو تمام الطائي في بعض شعره:

إن نختلف نسباً يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

كما نراه يقدم لنا هذه الصورة البديلة لأبوة النسب في إحدى قصائده التي يمدح فيها أحد معارفه بمصر: "عياش الحضرمي".

وأنت بمْصرٍ غايتي وقرابتي بها وَبَنُو الآباءِ فيها بنُو أبي[1]

فقرابة الأدب هنا، قد أصبحت بديلاً عن قرابة نسب الآباء والأجداد.

على أننا نجد في (حماسة) أبي تمام – وهو المنسوب إلى قبيلة طيّ – بعض نماذج شعر الولاء بين الآباء والأبناء، كما نجد في الحماسية رقم (609) التي تمثل صورة العلاقة بين الأب والابنة:

واللهِ ما أخْشى حكيماً وَرَهْطهُ وَلكِنَّما يَخْشى أباكِ حكيمُ

مثلما نجد في الحماستين (85)–(604) وغيرهما ما يتضمن رقة قلب الأب والتعطف على الولد والأهل – على حد تعبير المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام.[2]

3) ولم يرد ذكر خاص لأبي ابن الرومي في ديوانه إلا حيث – كما يرى العقاد – يقول من قصيدة بائية يذكر فيها مناقبه ومناقب آبائه:

وكم مِنْ أبٍ لي ماجدٌ وابن ماجدٍ له شرفٌ يُرْبَى على الشرفِ المربّي
إذا أمطرتْ كفاه بالبذلِ نُوِّرت له الأرضُ واهتزت رُباها من الخِصب

وإلا حيث يقول:

شادٍ لي السور بعد توطئةٍ الأسُّ أبٌ قال: أنت للشرفِ

والبيتان الأولان فخر يراد به وقع الكلام واستيفاء باب من أبواب الشعر التي كان الشعراء ينظمون فيها من نسيب ومدح ورثاء وهجو وفخر ونحوها، فليس فيه خبر ولا رواية، ولكنه معالجة فنية كهذه الموضوعات التي يعالجها الشاعر المعاصر لتصوير الأطوار النفسية ووضع الأماثيل على لسان الحال، ثم لا يعني بها الإخبار عن نفسه وإن جاءت بضمير المتكلم ... والبيت الثالث يلحق بهذين البيتين في الفخر والإشادة بالنسب **من ناحية (الفن) لا من ناحية (التاريخ)**، إلا أننا

نستخلص منه أن أباه كان يتوسم فيه الذكاء ويرجو أن يشرف بعلمه وأدبه كما شُرِّف بالعلم والأدب كثيرون من أبناء الموالي ارتفعوا إلى مناصب الوزارة عن طريق الكتابة والمساجلة ومعاشرة العظماء المتأدبين،

[1] راجع هنا: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي تحقيق: محمد عبده عزام. مجلد (1) دار المعارف. القاهرة 1957 ص162).

[2] راجع هنا: المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، (1967)، ص450. وراجع هنا أيضاً البحث القيم: الشعر والشعرية في العصر العباسي لـ (ستيتكيفيتش (سوزان)). ترجمة حسن البنا عز الدين. القاهرة، 2008، ص456.

وكان أبوه صديقًا لبعض العلماء والأدباء.[1] ولا تعليق سوى التأكيد على ملحظ العقاد بالفرق بين نسبِ الفن ونسب التاريخ.

ولقد لعبت عقدة الأب في شعر المتنبي دوراً عظيماً في محاولة الشاعر للتسامي عن مهنة الأب، الذي كان يمتهن السقاية في بعض أحياء بغداد، وهذا ما علل به بعض شارحي ديوانه رثاءه لجدته، وتجاهله التام لذكرى أبيه في مجمل متن ديوانه. وإن كنا لا نعدم بعض الإيماءات عن تأففه من بعض صلات ذوي القربى، وعن ميراث الأجداد للآباء وذلك على نحو ما جاء في ميميته الشهيرة في وصف الحمى.

وآنَفُ من أخي لأبي وأمي إذا ما لم أجِدْهُ مِنَ الكِرَامِ
أرَى الأجْدادَ تَغْلِبُهَا كثيراً على الأولادِ أخْلاقُ اللِئامِ[2]

وتتجلى لنا في البيت الأول بعض من ملامح غلبة أخلاقيات الفضيلة التي تعلو على نسب القبيلة، بينما تتجلى في البيت الثاني غلبة أخلاقيات الماضي: (الأجداد) على أخلاقيات العصر والأهواء من حيث السمو (الكرم) أو الانحطاط فيما يعبر عنه الشاعر بعبارة (أخلاق اللئام).

ولكن تظل صورة الأب في شعر المتنبي غائبة، لا لمجرد شعوره بتدني مهنة أبيه فحسب ولكن لأسباب كثيرة أخرى، ربما تعود إلى ولاءاته المختلفة (السياسية والدينية معاً).

وكما أننا لا نجد صورة واضحة المعالم للأب في شعر المتنبي، كذلك الأمر بالنسبة لشعر أبي العلاء المعري، الذي عبر عن سخطه من وجوده كله عندما أوصى بكتابة هذا البيت كشاهد على قبره.

هذا جناه أبي عل يّ وما جنيتُ على أحد

ولكننا نجد له قصيدة في ديوانه (سقط الزند)يُرثي فيها أباه الذي كان له أبًا صديقًا وقائدًا مرشدًا يقول فيها:

لقد مسختْ قلبي وفاتُك طائرًا فأقسمَ ألاَّ يستقرَّ على وُكْنِ
يُقضى بقايا عَيْشِه، وجَنَاحُه حثيثُ الدواعي في الإقامةِ والظَّعنِ
[3]كأنَّ دُعاةِ الموتِ باسمك نَكزةٌ فَرَتْ جسدي والسُّمُ ينفُذُ في أذني
فَهَلْ أنتَ إن ناديتُ رَمْسَكَ سامِعٌ نداءَ ابنك المفجوعِ بل عبدِك القِنّ
ونادِيَةٌ في مَسمعي كُلّ قِنيةٍ تُغرِّدُ باللحنِ البريءِ عَنِ اللحنِ
وأحمِلُ فيكَ الحزنَ حيًّا فإن أمُتْ والفلكَ لم أسلُكْ طريقًا إلى الحزنِ[4]

ونلحظ هنا مدى الألم في هذا الحوار بين الابن الذي ينادي رُفاتَ أبيه وهو مفجوعٌ لفقدِه ويقفُ منه موقف العبد الذليل وهو موقف اليتيم دائمًا وهي صورةٌ تتكرر كثيرًا في شعرنا المعاصر ولاسيّما في شعر شاعرنا فاروق شوشة خاصة.

[1] العقاد " ابن الرومي، حياته من شعره، كتاب الهلال، القاهرة، العدد 214، يناير 1969، ص77 – 78.
[2] أنظر هنا ديوان المتنبي مطبوعات المركز العربي للنشر . القاهرة. 1980 ص314.
[4] المعري أبو العلاء ديوانه: سقط الزند نقلاً عن: عائشة عبد الرحمن: الغفران. دراسة نقدية. دار المعارف. القاهرة. ط4، 1999ص22.

2– صورة الأب في الشّعر العربيّ الحديث:

4) ولم تظهر لنا ملامح صورة الأب في حركة الشعر الكلاسيكي الجديد عند (البارودي – شوقي – حافظ – مطران) وغيرهم من الشعراء العرب في كل من العراق والشام في القرنين التاسع عشر والعشرين) وإن عبر حافظ عن شبه أبوة ثقافية وفكرية في مراثيه للأستاذ الإمام محمد عبده وغيره من قادة الحركة الوطنية (مصطفى كامل – سعد زغلول – قاسم أمين) وغيرهم.

وإن كان لشوقي قصيدة نونية يُرثي فيها أباه ومطلعها:

"سألوني: لِمَ لَمْ أَرْثِ أَبي ؟ ورثاءُ الأبِ دَيْنٌ أيُّ دَيْنْ

أيُّها اللُّوّامُ، ما أَظلمَكم ! أينَ لي العقلُ الذي يُسعِدُ أَيْنْ ! "[1]

ويوثق الشاعر موت أبيه بسنة الكمال – كما سيعبر صلاح عبد الصبور فيما بعد:

" يا أبي، ما أنتَ في ذا أولٌ كل نفسٍ للمنايا فرضُ عَيْن

هَلَكَتْ قبلُك ناسٌ وقرى ونعى الناعون خيرَ الثقلين"[2]

كما نراه يمزج بين ذاته وذات أبيه – كما سيصنع فاروق شوشة في رثاء أبيه فيما بعد:

"أنا مَنْ مات، وَمَنْ مات أَنا لقى الموتُ كِلانا مَرَّتين

نحن كنا مهجةٌ في بدنٍ ثم صِرْنا مُهجةً في بَدَنينْ

ثم عُدنا مهجة في بدنٍ ثم نُلقىَ جُثَّةً في كَفَنَيْن !"[3]

ثم نراه أخيرًا يقرر أن الأبوة – كما يلتقت شارع ديوانه – ضرب من ضروب الرسالة التي لم تنقطع كما انقطعت رسالة الأنبياء، فيبقى الأب والابن في صيرورة الحفيد (علي) نجل شوقي:

"ثم نحيا في "عليٍّ" بعدنا وبه نُبْعَثُ أولىَ البَعثَتَيْن"[4]

ونجد هنا نوعًا من التناص بالمعنى النقدي المعاصر أو ترشيحًا مجازيًا بالمعنى البلاغي القديم لصيرورة الآباء في الأبناء والأجداد، في قصيدة "أبي" لفاروق شوشة خاصة، والذي أردف قصيدة رثائه لوالده بقصيدة مناجاة جميلة لشوقي وفنه وعصره.

وإلى جانب رثاء شوقي لأبيه نجد قصائد أخر يبكى فيها والدته نظمها وهو في منفاه بالأندلس (1918) ومطلعها:

"إلى اللهِ أشكو من عوادي النوى سهمًا أصابَ سُوَيْداَ الفؤادِ وما أَصْمىَ"

كما رثى جدته في قصيدته مطلعها:

"خُلِقْنا للحياةِ وللممات ومن هذين كلُّ الحداثاتِ

---

[1] أحمد شوقي: الشوقيات: المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 2007، مج2، ص154

[2] المرجع نفسه، ص 154

[3] المرجع نفسه، ص 154

[4] المرجع نفسه، ص 155

وقد وضع فيها بيتًا يعد توأمًا لبيت المتنبي الذي يخاطب به جدته:

"وَلَوْ لَمْ تكوُني بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ لكانَ أباكِ الضَّخْمَ كونُكِ لي أُمًا"[1]

وبيت شوقي الموازي له في مرثيته لجدته:

"ولو لم تَظُهري في العُرْبِ إلا بأحمدَ كُنتِ خيرَ الوالداتِ"

ويرى أستاذنا الجليل شوقي ضيف، أن رثاء شوقي هنا وهناك، يتضمن عنصرًا إنسانيًا، يخرج القصيدة من حيز الرثاء الشخصي إلى حيز إنساني عام، العنصر الإنساني في مراثيه، هو تعمق لما بدأه المتنبي ثم انتهى به المعرّي إلى الغاية في مراثيه:

(وهو يسلكُ في هذا العنصر حكمًا كثيرة مقلدًا لأستاذه المتنبي، كما يسلك نقدًا اجتماعيًا، وهو في كل ذلك تلميذ المتنبي)[2]

وعلى هذا النحو يكون شوقي قد فتح الباب واسعًا أمام الشعراء العرب المعاصرين للتأمل في صورة آبائهم والتعمق في دلالاتها الإنسانية والجمالية معًا.

ومن هنا جاءت مناجاة الشاعر المعاصر فاروق شوشة في قصيدته (شوقي) تاليةً مباشرةً لقصيدة (أبي) في ديوانه "وجه أبنوسي".

يقول فاروق شوشة عن (شوقي):

شوقي..
هذي سُدّتك العُليا
باذخةٌ
والراية فوقَك معقودة
أتحسّسُ خطوى عبْر مدارجِ ساحاتكْ
أتلمَسُ بعض يقيني في كلماتكْ
وأطالع جلوة رُوحي في شُرفاتكْ[3]

ومع ظهور الحركة الرومانسية في شعرنا الحديث والمعاصر عند شعراء جماعة كل من (الديوان – المهجر – أبوللو) نجد بعض ملامح صورة الأب ولاسيّما عند الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي في قصيدة نظمها في آخر سني عمره القصير، وهي قصيدة "الاعتراف" حيث نراه يخاطب فيها روح أبيه –كما سيصنع فيما بعد بعض شعراء حركة الشعر الحر (صلاح عبد الصبور – أحمد عبد المعطي حجازي – أمل دنقل – فاروق شوشة).

[1] ديوان المتنبي ، مرجع سابق، ص 136

[2] شوقي ضيف: شوقي شاعر العصر الحديث ، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2010، ص 153.

[3] فاروق شوشة: وجه أبنوسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000 القاهرة، ط1، ص36 ،وانظر كذلك فاروق شوشة: عذابات العمر الجميل "سيرة شعرية" دار غريب، القاهرة. ط2، 1997، ص93 حيث كانت (الشوقيات في أدراج مكتبة أبيه)

يقول الشابي في قصيدة الاعتراف:

ما كنتُ أحسبُ بعد موتِك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزانِ
أني سأظمأ للحياةِ وأحتسي من نهرِها المتوهج النشوان
وأعودُ للدنيا بقلبٍ خافق للحبِ والأفراحِ والألحان[1]

ويعود الشاعر في قصيدته السابقة إلى نزعة حب الحياة عبر تجددها الدائم إلى عهد آدم:

وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من الهذيان والبهتان
إن ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الإيمان[2]

كما يداعب الشاعر بدر شاكر السياب في أواخر قصائده (غابة الظلام) – بروح الأبوة الحانية – ابنه: غيلان، ونراه هنا يعود إلى صيغة أخرى من مظاهر تجدد الحياة وذلك بالإيماءة إلى معجزة السيد المسيح في إحياء عازر (أليعازر).

ومقلتا "غيلان" تومضان بالحنين
....
عيناه في الظلامِ تسريان كالسفين
بأيّ حقلٍ تحلمان؟ أيما نهر؟
بعودةِ الأبِ الكسيحِ من قرارةِ الضريح؟
أميت فيهتف المسيح
من بعد أن يزحزح الحجر:
هلم يا عازر؟
عيناه لظى وريح
تحرق في أضالعي مضارب الغجر؟[3]

5) وفي قصيدة (نام في سلام) ينسج صلاح عبد الصبور صورة بارعة لجدلية الموت والحياة في مسيرة الأجيال عبر استدعاء صورة المعلم منذ فجر الحضارة الإغريقية وعند سقراط خاصة:

"مات ذلك الوديع دون ما احتفال
معلماً ورائداً في سُنّةِ الكمال
...

[1] الشابي: ديوان: دار العودة. بيروت. ،1976 ص308.
[2] م ن: ص381
[3] السياب: شناشيل ابنة الحلبي. بيروت، ط3، 1967 ص133.

"ألم يقل لنا المعلم الشهير حكمة الأجيال؟
يا أيها الإنسان اعرف نفسك!
وهو يموت وادعاً لأنه عرف..."[1]

وتعلق بصورة الأب هنا بعض الصور التراثية الأخرى التي تدل على التجدد وبعث الحياة حيث إننا محكومون بما يطلق عليه الشاعر قانون "سنة الكمال":

"لكنه ابتسم
لأنه قد وهب الحياة
أيامه القليلة
لكي يزيد في هناءة ابتسامة الصبي
ونشوة العذراء
وفرحة الآباء بالأبناء
لكي ترف في سحابة السماء
حمامة السلام[2]

6) ويكتب حجازي في قصيدته "رسالة إلى مدينة مجهولة (1957)" في ديوانه الأول (مدينة بلا قلب 1958) مجموعة من الرسائل الشعرية إلى روح أبيه من مدينة "الزجاج والحجر":

الصيف فيها خالدٌ، ما بعده فصولْ
بحثت فيها عن حديقةٍ فلم أجد لها أثر
وأهلها تحت اللهيب والغبار صامدون
ودائماً على سفرْ!
لو كلموك يسألون.. كم تكون ساعتك؟
مضيت صامتاً موزَع النظرْ"[3]

ومع هذا الصمت والتأمل الموزع النظر في الحياة نرقب سُنّة الكمال عبر صور شتى يمتزج فيها الماضي بالحاضر المتجدد.

"رأيتهم يحترقون وحدهم في الشارع الطويلْ
حتى إذا صاروا رماداً في نهايته
نما سواهم في بدايته،
وجدّفت ساقُ الوليد فوق جثةِ الفقيدْ

[1](صلاح: ديوان، مكتبة الأسرة القاهرة 2002، ص257.
[2]المصدر نفسه ص258
[3]حجازي الأعمال الشعري الكاملة (ط الهيئة العامة للكتاب) القاهرة ،2014، ص 115

كأن من مات قضي ولم يلدْ
ومن أتى، أتى بغير أب
فجعتُ فيهم يا أبي، كرهتهم في أول النهارْ
وفي المساء قارب الظلام بين خطونا[1]

ويظل شوق الشاعر لرؤية أبيه، شوقاً عارماً، ولو كان ذلك في المنام، خشية نسيان صورة الأب:

"وسوف تنقضي سنة أخرى، وتنقضي سنين ولا أراكْ، وربما أنساك!"[2]

7)وتتجلى لنا صورة الأب عبر جدلية الذاكرة والنسيان في قصيدة "الجنوبي" لأمل دنقل من ديوانه (أوراق الغرفة (8)) ، حيث يتأمل الشاعر من خلال " صورة " عائلية، ملامح الأب ، عندما كان الشاعر طفلاً، غابت ملامحه في الذاكرة البعيدة الشقية، لموت أب مات نازفاً:

" هل أنا كنت طفلاً
أم أنّ الذي كان طفلاً سواى ؟
هذه الصورةُ العائليةُ ...
كان أبى جالساً، وأنا واقف تتدلي يداي
رفسةٌ من فرسٍ
تركتْ في جبيني شجّاً، وعلمتِ القلبَ أنْ يحترس
أتذكرُ...
سالَ دمي
أتذكرُ
مات أبي نازفاً
أتذكر...

هذا الطريق إلى قبره... "[3]

(3)

وفى ديوانه " وجه أبنوسي " يرسم شاعرنا فاروق شوشه صورة رائعة لأب رائع، كانت تحيطه هاله من الجلال والجمال، مصدرهما أبوةٌ حانيةٌ، غرسها الأب في نفوس أبنائه : "يقول الشاعر في قصيده "أبى".

كيف أغويْتَني ؟
حين صدَّقتُ أنكَ باقٍ،

أمل دنقل : الأعمال الكاملة ط، المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ، 2013. ص 419.

وأنَّ زمانَك يمتدُّ في الأفقِ المستحيل !
كنت تفلُتُ منِّي...
ذراعاكَ لا تقويانِ على ضمِّ صدري إليكَ
ولا أتبيَّنُ ...
أنك تُمعن في البعدِ يوما فيوما
ويأخذك الجَزْرُ شيئًا فشيئا
ويسحبُ للقاعِ...
هذا البهاءَ المهيبَ الجليلْ
كيف صدَّقتُ فتنةَ عُمري،
وزَهْوي بأنك لي
– كالنخيلِ الذي قدْ غرستَ –
امتدادٌ إلى آخرِ الدهرِ
يسطعُ فوقَ الحقولِ
ويوغِلُ مخترقا في السَّديمِ
ويوغلُ
لا يعتريه الذُّبولْ ![1]

والقصيدة كلها نشيج عذب الأضواء لمعنى الأبوة الصافية الحانية، يسجل فيها الشاعر بريشته العديد من الأضواء لدورة الزمن عبر مراحل تطور الأجيال ومن خلال أسرة ريفية بسيطة كانت تعيش في سيرة الآباء لكي تنسج في ضوئها معني العزة والإباء، على الرغم من ضيق يد الحال:

" تغيبُ لتشرق فينا
ويسطعَ وجهك عبر ملامحنا
ويواكب نهر تضاريسنا
حين نطوى مسافةَ عمرٍ
ونُعلنُ عنْ خطفةٍ للفراقِ
وعن زمنٍ للغيابِ الطويلْ[2]

(9) وكان من حسن حظ الدارسين لشعر فاروق شوشه أن صاحبه قد كتب سيرة شعرية، كشف فيها عن أهم مراحل حياته الأسرية والثقافية، عبر رحلة عمر ثقافي مديد، متعنا فيها فاروق شوشه بصوته العذب الجميل،

[1] فاروق شوشه : وجه أبنوسي، ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2000، ص 56.
[2] فاروق شوشه : وجه أبنوسي، ص 57

النابع من إتقانه المبكر لمخارج الأصوات العربية، كما عرفها من والده، أو من بعض أساتذته بكلية دار العلوم، حيث كان العلامة إبراهيم أنيس يقدم تحليلا علميا دقيقا للأصوات اللغوية.

في هذه المسيرة الشعرية، يقرأ الشاعر منذ طفولته المبكرة ملامح صورة شخص (كان مهيباً، تطل من عينيه نظرة آمرة، مسيطرة وتحتها أبيات من الشعر تستهويه :

يا ضياء في صورةٍ يتهادى :. أنت كالبدرِ في بهيّ بهائِك[1]

وكانت هذه صورة لأحد أقطاب الطرق الصوفية والتي كانت مع صورة الأب تؤلف مزيجاً من الرؤية الحدسية شبه الشاعرية لأب كان نهراً من الضوء ينساب

" كان نهرًا من الضوءِ ينسابُ "..

في حَلكةِ الليلِ،

والظلمة الداهمة..

كان يأخذُنا من دبيب الطفولة فينا

إلى حيث نُقلعُ في لُجَّة الحرفِ

نركبُ متنَ السؤالِ

وتحملُنا موجةٌ عارمة !

لم يكن يتوقف يوماً ليسأل:

أيَّ الحظوظ أصبْتُ ؟

وأيَّ البلاد سكنتُ ؟

فقد كان يكفيه أنا له الحظُ...

نحن جَنَىَ الأرض

والأوسمة !

(10) ويمتزج الجانب الروحي من حياة الأب في مخيلة الشاعر بالجانب العملي والمادي حيث نرى صورة الأب وهو يعمل بفرح في أرض بساتينه وكأنه يجدد لنا بوعي أو بدون وعي أسطورة إله الزرع الذي يموت ثم يبعث، كما رأينا في أسطورة ديونزيوس وأوزيرس،[2]:

وإذا كان نظام الكلمات في بنية الشعر هو الذي يخلق معنى النص وإذا كانت أيضًا الكلمة – كما يعبر أستاذنا الجليل شكري عياد – قد (تخلقت في رحم الأسطورة)[3] فإن كلمات المقطع الآتي يصنع جوًا أسطوريًا وإن لم يعلن عن ذلك الشاعر صراحةً، بل تعلن بنية الكلمات الدرامية عن ميلاد الأسطورة عبر

[1] انظر : فاروق شوشه (عذابات العمر الجميل " سيرة شعرية " دار غريب، القاهرة ، ط2، 1997، ص 30

[2] راجع هنا : شكرى عياد : البطل في الأدب والأساطير. القاهرة. 1998 ص 153 وانظر أيضا دراسته الرائعة عن شعر شوشه في كتابه: أزمة الشعر المعاصر، القاهرة 2000 ص 85. تحت عنوان : "صورة أخرى للوجه اللامع"

[3] شكري عياد: اللغة والإبداع، ناشيونال بريس، القاهرة، ط1، 1980، ص131.

تخلقها من رحم الكلمات، مثلما تتولد الكلمات من رحم الأسطورة في دائرة إبداعية لا يتقنها غير شعراء الكلمة المبدعة حقًا.

"هو ذاك الذي كان يجمعُ زيتونَهُ"
ويُقلّمُ نخْلَتَهُ
ويضيءُ بساتينهُ
ويُجمّع في قبضة اليدِ
ما أبقت العُسرةُ الداهمة![1]

ومن يتأمل صورة شاعرنا فاروق شوشه، هكذا على الطبيعة ليجده يمثل تجسيداً حياً صورة أبيه، حيث الضوء الذي يعشق العمل، أو العمل الذي يعشق الضوء، العيون الممتلئة بالمحبة للنفس وللآخرين، وقبضة اليد القوية الخشنة، وكأنك عندما تراه تقف أمام مثال حي لنبض الروح وجيشان النفس والجسد، وما بين الرقة البالغة والقوة الخفية عن الآخرين، والكامنة في الذات، تتجلى لنا صورة الابن من خلال مرايا الأب القوي الحنون الذي صار قرينًا لنفس ابنه:

" يا أبي
يا أبي
يا صديقَ السّنين الطوالِ التي
شكلتني على صورةٍ منك،
صِرتَ قرينًا لنفسي
وصوتًا لصوتي
ومتكئًا حين تقتلعُ الحادثاتُ
فضاءً به انسكبَ الضوءْ والعطرُ،
والسيرةُ الفاغمة.
اليتيمُ يلوذ ببابكَ
جاء يدقُّ على جذعِ صبّارةٍ
نبتَتْ حولَهُ
واستحالت مدَى من عروقِ اخضرارِكَ
حين انسكبْت علينا
زمانًا، وحُلمًا، وطيفًا تباعد[2]

[1] فاروق شوشه : ص عذابات العمر الجميل، ص 59.
[2] ص فاروق شوشه : عذابات العمر الجميل، 58

ويظل الشعور باليتم مسيطرًا على الشاعر لفقدانه نهر العطاء الروحي، وفي صورة من أجمل الصور في شعرنا المعاصر في مناجاة الحب العاطفي الرقيق، والذي يمثل تجربة عاطفية نادرة لا في شعرنا العربي المعاصر، بحسب، بل في مجمل الشعر العربي كله، العذري منه وغير العذري، يرسم الشاعر هذه اللوحة الرائعة لمعنى الأبوة عبر العصور :

ها أنا أرتجيكَ
أنادي عليكَ ...
وأشتاقُ وجهَكَ ...
أُصغي لعلك...
أقبعُ في حافةِ الليلِ
منتظراً..
كاليتيمِ الذليل !"[1]
والآن لنتأمل كيف يتحسس الشاعر زمن الأب
"دعْ رداءَك لي
أتشممُ فيه زمانكَ
أغمسُ وجهي به إذ يُلامسني
وأشدُّ خيوطًا بك امتلأَت
صاحبتكَ طويلا [(2)].."

11) وهكذا تتشابك أمامنا خيوط هذه القصيدة الرائعة حيث يجمع الشاعر في كلٍ متماسك، الأزمنة الماضية والحاضرة، ويسيطر سيطرةً كاملة على عاطفته تجاه الأب، فلا نحس بأية طرطشة عاطفية هنا أو هناك ولكن القصيدة تمتلك بنيانًا موضوعيًا ويطل الشاعر من خلالها على أدق تفاصيل حياته الروحية والعاطفية تجاه أب مصري عظيم لأنه كان دائم السهر على هذا المولود الواعد.

"كان يحملنا ملءَ عينيه
وهو يُغلق جفنيْهِ
يخشى علينا انزياح الفضاء
ويخشى علينا المروق من الوقت
يخشى عليْنا التفرَق

[1] المصدر نفسه، ص57.
[2] المصدر نفسه، ص 59

واللحظة القادمة [1]

وتترابط مقاطع هذه القصيدة ترابطًا جماليًا فريدًا؛ فلا نحس بأن هذا المقطع كان يمكن أن يسبق أو يلحق بمقطع آخر بل إن البناء الفني لكل مقطع قد أُحكم تشييده ضمن النسق الشعري الملائم فخوف الأب على أبنائه من التفرقة في اللحظات القادمة بكل ما تحمله من عناصر الشتات والتمزق بين الإخوة تلتحم مباشرة بصورة شعرية عن جهد الأب وهو يجمع لأبنائه ما أبقت العسرة الداهمة.

ويأتي المقطع الأخير من هذه القصيدة الجميلة كما تأتي لحظة الإنارة في بعض القصص القصيرة، لحظة كاشفة فيما بين الخشية والرجاء ليبقى جهد الآباء ممثلاً في صورة مجازية عن هذا الأب في لحظة العمل.

"هو ذاك الذي كان يجمعُ زيتونَهُ"

ويُقلِّمُ نخْلَتَهُ

ويضيءُ بساتينهُ

ويُجمّع في قبضة اليدِ

ما أبقت العُسرةُ الداهمة!

إنها حقًا لنظرة شعرية رائعة للأب كشخص وذات تتصل بذات الشاعر بقدر ما هي نظرة إنسانية عميقة بمعنى الأب والأبوة عبر العصور التي مرت بها البشرية قاطبة.

إن النزعة العاطفية الخالصة في التجربة الشعرية لفاروق شوشة لأعمق بكثير جدًا مما قد يتوهمه بعض المتوهمين بأنها نزعة عاطفية ذاتية قاصرة على هموم الذات الفردية في تجربتها التي تخوضها في الحياة اليومية بين قطبي الحب والعشق من ناحية والفراق والموت من ناحية أخرى، ولقد آن الأوان ليعيد النقد الأدبي المعاصر الكثير من الأحكام السطحية التي كانت سائدة هنا أو هناك حول بعض النماذج الشعرية العربية المعاصرة، وخاصة النماذج الوجدانية الرقيقة لشاعرنا الكبير والجميل فاروق شوشة ذي الوجه اللامع والصوت العذب الحنون.

[1] فاروق شوشه : ص عذابات العمر الجميل، ص59